إيوان كسرى بين شاعرين

للأستاذ حسن الأمين

— ١ —

وقف البحترى على إيوان كسرى وقفة طويلة جالت فيها عيناه فى جوانب الإيوان وتطلعت إلى صوره ونقوشه ، وترامت فى جوانبه وأركانه ، فأدهشته ضخامة البنيان وروعة الفن وجلالة الصنعة فاستوحى خياله واستنطق شاعريته فجاءنا بقصيدته السنية الخالدة التي اشتهرت كل الاشتهار

وكما وقف البحترى على الإيوان وقف عليه بعد البحترى شاعر شهير ، فأرسل بطرفه إلى سوامقه الشاهقة . وتلفت إلى بقاياه الهائلة ، فهاجت شاعريته ، وفاضت قريحته . فرفد الأدب العربى بقصيدة عصماء لم يكتب لها من الشهرة ما كتب لقصيدة البحترى ؛ فظلت فى ديوان الشاعر مغمورة بين قصائده الكثيرة قبل أن يذكرها ذاكر أو يشير إليها مشير . وهكذا تواتى الحظوظ شعراً فيحلق فى الأجواء ، وينتشر فى الآفاق ، وتعاكس شعراً فينزوى بين طيات الأوراق ، لا يرفع رأساً ، ولا يُسمع همساً فيضيع أى ضياع !

هذا الشاعر الذى عنيته هو الشريف الرضى ، فقد تقاذفته النوى حتى حطت به على إيوان كسرى فنظم قصيدة من أروع قصائد الشعر العربى ، ولكنها ظلت مهملة ، فلم تجد بين كتاب العربية ونقادها من أولاها عناية ، أو أشار إليها إشارة ، مع ما فيها من الإحساس العميق والشعور السامى الذى يرفع صاحبها إلى أسمى المراتب بين شعراء الأمجاد العربية .

* * *

وقف الشاعران على الإيوان وتطلع كل منهما إليه بعينين تختلفان عن عينى الآخر ، ونظر إليه كل منهما بفكر يباين فكر الآخر ، وأثار الإيوان فى نفس أحد الشاعرين غير ما أثار فى نفس الشاعر الآخر ؛ فجاءت قصيدتاهما متباينتى الروح والعاطفة والغاية

فالبحترى كان فى وقوفه على الإيوان شاعراً فحسب ، لم يهج فيه الإيوان إلا عاطفة الشعر . فوصف ما شاهد ووصف الشاعر المجيد الفنان فأبدع فى الوصف ما شاء الإبداع ، وأوحى له خلو الإيوان من بنائه ، وانقراض حماته عاطفة الأسى العميق فقال :

أتسلى عن الحظوظ وآسى ... لمحل من آل ساسان درس
ذكرتنيهم الخطوب التوالى ... ولقد تذكر الخطوب وتنسى
وهمُ خافضون فى ظل عال ... مشرف يحسر العيون ويخسى
مغلق بابه على جبل القبـــق إلى دارتى خلاط ومكس

فهو فى هذه الأبيات متذكر معبر يتأسى عن الجدود الغائرة بالطلول الدائرة ، فيذكر آل ساسان وحياتهم الهنيئة فى ظل الإيوان ، وعيشتهم الرغيدة فى أبهائه ، وما كان لهم فيه من سلطان أى سلطان . ثم هو يقارن بين هذه الأطلال الساسانية الضخمة وبين الأطلال البدوية التى شغلت شعراء الجاهلية فوقفوا عليها وبكوها وفاض شعرهم بالتغنى بها وترديد ذكرها ، فكأنما يريد أن يقول إن مثل هذه الأطلال هى التى يجب أن تشغل الشاعر فيموج عليها ويستغلقها أخبار الظاعنين لا أطلال القفار البسابس التى لم يكن لها أن تشغل الشعراء ذاك الإشغال :

حلل لم تكن كأطلال سعدى ... فى قفار من البسابس ملس

ثم يندفع الشاعر يصف خلو الدار وإقفارها حتى كأنها أرماس أو مآتم بعد أعراس . ثم يشير إلى ما تدل عليه هذه الآثار من عجائب مشيديها وإبداع موجديها ، ثم يسهب فى وصف

صحبه الإهداء ... ويكون مضطراً حينذاك إلى القراءة التى تفرض عليه بهذه الوسيلة فرضاً ... حتى لا يُغضب أحداً إذا سأله عن رأيه فى كتابه الأخير مثلاً ... وقد يكون هذا الأديب المتحرج مشغولاً بقراءة أخرى أهم مما تفرضه عليه الصداقات الجديدة قراءته ... فماذا يصنع ... وقد تكون الكتب المطلوب إليه قراءتها سخيفة ... فما العمل ؟ ! ولا أستطيع أن أقرر إلا أن هذه اللاحظة دعابة لطيفة ، وأخشى أن تكون ... تافهة ... ولا يسخط هذا التعبير صديقى العزيز ... الذى أهدى إلىّ كتابه الأخير ، ولن أعفيه من الكتابة عنه .

دريني خشبة

ما فيها من النقوش والصور الماثلة ، مجيداً فى كل ذلك كل الإجادة :

وهو ينبيك عن عجائب قوم   لا يشاب البيان منهم بلبس
فإذا ما رأيت صورة أنطا   كية ارتعت بين روم وفرس
والمنايا موائل وأنوشر   وان يزجى الصفوف تحت الدرفس
فى اخضرار من اللباس على أصفر يختال فى صبيغة ورس
وعراك الرجال بين يديه   فى خفوت منهم وإغماض جرس
من مشيح يهوى بعامل رمح   ومليح من السنان بترس

وفى هذه الأبيات نستدل على ما كان عليه الإيوان من فن رائع تتجلى فيه صور المعارك الحربية بين الروم والفرس وصور المدن التى وقعت فيها المعارك وصور ملوك الفرس بألبستهم الزاهية يقودون جيوشهم المنتصرة ، وصور المتقاتلين هذا يهوى برمحه وذاك يتقى بترسه إلى غير ذلك من المشاهد المتنوعة

ويبلغ إعجاب البحتري بهذه الصور والنقوش أقصى حدوده حتى ليحسبها أشخاصاً حية ، وحتى أنه ليمعن فى هذا الحسبان فيغالط نفسه فيتقدم إليها ويلمسها ليتأكد من خمود الحياة فيها :

تصف العين أنهم جد أحيا   ء لهم بينهم إشارة خرس
يغتلى فيهم ارتيابى حتى   تتقراهم يداى بلمس

ثم يمضى البحترى على هذا النسق فى الوصف والشعور والتوجع فى تسعة أبيات ينتقل بعدها إلى ما أصاب الإيوان من كوارث وأرزاء ثم لا ينسى أن يعزيه عما نزل به مشيراً إلى أن ذلك لا يعيب عظمته الخالدة ما دام لا يزال مشمخراً عالى الشرفات :

عكست حظه الليالى وبا   ت المشترى فيه وهو كوكب نحس
فهو يبدى تجلداً وعليه   كلكل من كلاكل الدهر مرسى
لم يعبه أن بز من بسط الديبا   ج واستل من ستور الدمقس
مشمخر تعلو له شرفات   رفعت فى رؤوس رضوى وقدس
لابسات من البياض فما تبـصر منها إلا غلائل برس

وبعد ذلك يظهر البحترى دهشته فيسائل نفسه أيستطيع الإنسان أن يبدع هذا الإبداع أم هى بدائع الجن للانس :

ليس يدرى أصنع إنس لجن   سكنوه أم صنع جن لإنس

ومهما يكن من أمر فهو يؤمن أن البانى لم يكن ملكاً خاملاً ولا إنساناً حقيراً بل هو بان كانت تغص نواديه بالوافدين ، وتعج مقاصيره بالقيان والمغنين ، وهو من هؤلاء الملوك الذين سادوا الزمن فعنا لهم وانقاد إليهم فعاشوا حياة كلها رغد وهناء

فكأنى أرى المراتب والقو   م إذا ما بلغت آخر حسى
وكأن الوفود ضاحين حسرى   من وقوف خلف الزحام وخاس
وكأن القيان وسط المقاصـ   ـير يرجحن بين حو ولعس
وكأن اللقاء أول من أمـ   ـس ووشك الفراق أول أمس

وبعد كل هذا يبرز البحترى شاعراً لا يهمه من كل ما رأى إلا أنه مظهر حى يهز النفوس الشاعرة الحساسة فتبكى العز الزائل والملك الهاوى وتشيد بذكر الأمجاد أياً كانوا :

عمرت للسرور دهراً فصارت   للتعزى رباعهم والتأسى
فلها أن أعينها بدموع   موقفات على الصبابة حبس
ذاك عندى وليست الدار دارى   باقتراب منها ولا الجنس جنسى

ثم يعقب على ذلك ببيته الختامى الذى يظهر فيه مذهبه الشعرى الإنسانى :

وأرانى من بعد أكلف بالأشـ   ـراف طراً من كل سنخ وجنس

— ٢ —

يستهل الشريف الرضى قصيدته استهلالاً فروسياً جميلاً تتجلى فيه روحه الوثابة وتبرز سجاياه الشماء ، بل تبدو إحساساته المكبوتة وعواطفه المقهورة . فالرضى فتى ملء برديه الرجولة التواقة إلى العلياء ، الطامحة إلى المجد ، وقد اجتمعت له من كريم نسبه ونبل خلاله وسمو مكانته ما جعله يأنف حياة الدعة والخمول وعيش الصغار والهوان . وتحكم فى عصره بالناس من هم دونه كفاية وشهامة وحسباً ونسباً فحاول أن يشق طريقه فأقعده الزمن وردته ظروفه فظل مهضوماً مغيظاً يفرج كرباته بالشعر :

قربوهن ليبعدن المغارا   ويبدلن بدار الهون دارا
واصطفوهن لينتجن العلى   بالعوالى لا لينتجن المهارا

إنه ليترنم بالخيل ويهتف باسمها ويصيح برهطه ليقربوها

إليه ! ... وماذا فى الخيل ؟ ... إن فيها مظاهر القوة والعظمة ، مظاهر النضال والكفاح ، مظاهر الفروسية الباسلة . والشريف يرى نفسه رجل الخيل المغيرات وقد حيل بينه وبين أعنتها فهو يزفر من أعماق صدره هذه الزفرة الحماسية جامعاً فيها ما يتأكل نفسه من الحرمان المرير ، ومضمناً لها مايجول فى خاطره من التوثب إلى معالى الأمور ، فهو وقد وقف على إيوان كسرى لا يتغزل بالحسان الساحرات ، ولا يستبكى للأطلال الدائرات ، بل يفتتح قصيدته بدعوة الخيل لا للتسلى بأعنتها ، ولا للتلهى بصهواتها ، بل للغارات البعيدة ، ولتبدل له بدار الهوان التى تأويه دار العز التى يطمح لها . فهو يرى أنه إنما يحيا فى دار الذل ومنزل الضيم بالرغم مما كان يحاط به من تكريم وإعظام .

وتراه فى البيت الثانى يعلن زهده فى المادة فهو لا يريد الخيل لتنتج له النعلا

وبعد أن يمضى الرضى فى واحد وعشرين بيتاً يضمنها نوازعه وخواطره يصل بنا إلى ذكر الإيوان فيخبرنا أنه نزل فيه داراً لم تكن دار ذل ، وأن بناته كانوا ذوى مجد رفيع استقلوا فيه عن الناس وشغلوه عن أن يعار لغيرهم :

قد نزلنا دار كسرى بعده ... أربعاً ما كن للذل طوارا
أسفرت أعطانها عن معشر ... شغلوا المجد بهم عن أن يعارا
تصف الدار لنا قطانها ... المعالى والمساعى والنجارا

وهنا يتجلى إنصافه واعترافه بالحق ؛ فهو بالرغم من نزعته القومية المتحمسة لا يبخس الناس أشياءهم ولا يغض من ذوى المواهب ، بل يتكلم عن الناس بما كانوا عليه ؛ فقد وصفت الدار له قطانها ، فهى باذخة البناء رحيبة الفناء ، وهى محكمة الصنعة متقنة العمل ، وهى فى كل ذلك ناطقة بفضل من أبدعوها وحلوها تخبر عنهم بلسان فصيح ولغة واضحة

ثم نراه يلم بما أصاب هؤلاء القطان من نزول عن مجدهم واضمحلال لأمرهم ، فهو يرى أن الدهر استرد منهم ما أعارهم ليعيره إلى غيرهم فكأنما نعم الحياة عاريات يجود بهما الدهر على ناس ، ثم يبدو له فيستردها ليجود بها على آخرين وهكذا تتداول الأمم المجد فيما بينها :

آل ساسان حدا الخطب بهم ... واسترد الدهر منهم ما أعارا
بعد ما شادوا البُنى ترفعها ... عَمَد المجد قباباً ومنارا
كل ملموم القرى صعب الذرى ... يزلق العقبان عنه والنسارا

ثم ينتقل إلى وصف الإيوان كما رآه فى عهده ولكنه لا يصف لنا صوره ونقوشه ولا يتحدث عن عجائب صنعه وبدائع فنه ، بل إن ذلك لا يشغل ذهنه ولا يثير اهتمامه فلا يسترسل كالبحترى فى وصف دقائقه ، بل يعطينا صورة إجمالية عنه تملأ النفس رهبة ووحشة :

حمل الدهر إلى أن رده ... ضاغط السبء ضلوعاً وفقارا
مطرقاً إطراق مأمون الشذا ... غمر النادى حلماً ووقارا
أو مليك وقع الدهر به ... فأماط الطوق عنه والسوارا
أوهنت منه الليالى فترة ... لا يلاقى وهنها اليوم جبارا

إذ لم يكن يهم الرضى أن يستوفى وصف الإيوان ، فنحن لا نستطيع أن نتعرف من قصيدته إلى حال الإيوان يومذاك ولا إلى ما كان لا يزال ماثلاً من زخارفه ؛ فكأنه لا يعنيه أن يسهب فى ذلك ، بل يريد أن يستخرج العبرة من موقفه هذا ، فيتحدث عن حملة الدهر على الإيوان حتى تركه « ضاغط العبء ضلوعاً وفقاراً »

ثم يصوره تصويراً فنياً رائعاً فيتخيله مطرقاً إطراق من كانت له صولة فزالت ، وأمن الناس نقمه وضره ، فهو مطأطىء الهامة أسفاً على ماضيه وتفكراً بحاضره ، ولكن هذا الإطراق المحزن لا يذهب بوقاره وحلمه فهو — على شجاه — يملأ النادى حلماً ووقاراً . وهو على ما نزل به لا يزال محتفظاً بجلاله وهيبته ، ثم يشبهه بملك وقع الدهر به وحلت كوارثه فى ساحته فسلبته ملكه وأماطت عنه تاجه وذهبت بطوقه وسواره ؛ فهو لا يزال كما كان رجلاً كامل الهيبة ، ولكنه عاطل من حلل الملك وحليه ، وكذلك الإيوان ، فهو لا يزال قصراً شامخاً ، ولكنه خال من كل ما كان له من شأن

وهذه الأبيات هى كل ما يظفر به الإيوان من الشريف